الكتاب الفائز بجائزة الإبداع العراقي لسنة 2017م في مجال (الأدب الشعبي) للأستاذ الدكتور (علي حدّاد)

أ.د. وجدان فريق عناد

مركز إحياء التراث العلمي العربي

نال الأستاذ الدكتور (علي حداد) جائزة الإبداع العراقي لسنة 2017م في مجال (الأدب الشعبي ودراسات الثقافة الشعبية) ، وهي أرفع جائزة عراقية تقدمها وزارة الثقافة في العراق سنوياً، وفي أبواب الإبداع الأدبي والفني العراقي المختلفة.

نالها الأستاذ الدكتور (علي حداد) عن كتابه (جمر أخضر- دراسات في الأدب الشعبي العراقي) الذي تضمن خمسة فصول مطولة .

أشار الباحث في مقدمة كتابه إلى " أن فضاءات (التراث الشعبي) من الترامي حداً يجعل أية دراسة يكون طموحها أن تلم به كله ذات التئام (موسوعي) ، تجيء فيه متعددة الأجزاء، وبتضامن جهيد من قبل دارسين مختلفين في اختصاصاتهم العلمية ، وتخيرهم للذي يشتغلون عليه من حقول هذا التراث المتسعة". وتأسيساً على هذه الرؤية فقد اختار(الأدب الشعبي) حقل معاينة قرائية اشتغل عليه ، متكئاً على أهميته الاستثنائية بين حقول التراث الشعبي وحضور مضامينه في كشوفاتها الدلالية والجمالية من دن استثناء أي منها ، وذاك ما أوجب على فصول الكتاب ومباحثه أن تمرّ على الغالب من مضامين تلك الحقول ، وإن كان مروراً مقتضباً .

جاء الكتاب في ثلاثة أبواب كان أولها عن (الأدب الشعبي) ، وهو يكيّف عنونته وسماته في أبعاده الاصطلاحية والمقومات التي تخبر عنه ، لنسعى - بعد تبني ذلك منهجياً - لتقصي كشوفه من خلال مقاربة تاريخية للتراث الشعبي العراقي عبر رصد العصور والمراحل الإنسانية التي أنتجته ، ليلحق بذلك ملاحقة كشوفات الدرس التراثي العراقي في زمانية التي تجاوزت المائة عام .

أما ماشغل البابين اللاحقين اللذين تضمن كل منهما فصولاً ثلاثة فقد كان لأحدهما أن يذهب إلى تقصي ظواهر بعينها في (الشعر الشعبي العراقي) ، متمثلة بما ينتابه عند ترجمته إلى لغة أخرى ، وفي المساحة (النسوية) الفارهة التي جاءت حصة خالصة للمرأة فيه . ، ليجيء ثالث فصوله معاينة في تجربة شعرية معاصرة ، نؤشر فيها الكيفيات التي يمكن لمثل هذه التجربة أن تنضوي في أفق الموروث الشعبي ، وتستحيل جزءاً منه.

وكان الباب الآخير حصة (للسرد الشعبي العراقي) وهو يتجلى في أنماط مختلفة من(الحكي) الذي جرى تداوله في البيئة الشعبية العراقية منذ عهودها الموغلة في القدم حتى راهنها المعيش .

ولأن هذا الكتاب جدير بخاتمة غير تقليدية فقد جاءت على نحو من المعاينة القرائية التي تشرع مقولاتها (نحو تمثل معرفي رصين) لمقاربة (التراث الشعبي العراقي) واستنطاق قيمه ومضامينه التي أمست منطلقاً للحديث عن (التراث والتغيير الاجتماعي) و(خصوصيات الهوية) ، (والتأصيل الثقافي) و(طبائع البيئة والمكان) وما يمكن لهما أن يرسخانه من تكيف سلوكي وقيمي .

ويرى الباحث أن هذا الأدب من التعدد في حقوله الذي أنتجته أجيال متلاحقة ما يستوجب أن يكون المسعى إلى جمعه وتوثيقه وتبويبه مهمة مؤسساتية تتولاها الجامعات العراقية، لتستعاد قراءته بمنهجية بحثية رصينة ، بعد أن أقصي درس التراث الشعبي ـ وطوال المراحل السابقة ـ تماماً من أفق الأكاديمية العراقية ، إذ ليس هناك من معهد أو مركز بحثي يتولاه ، ولا قسم في كلية يحتويه ، بل إنك لن تجد أي مقرر دراسي يشير إليه ، أسوة بما هو موجود في عدد من الجامعات العربية ، ومعظم الجامعات العالمية.

وهذا التوجه المنهجي الأكاديمي يمكن له أن يستفيد من الجهود الدولية التي توجها إعلان منظمة (اليونسكو) عن اعتماد اتفاقية (صون التراث الثقافي غير المادي) التي دخلت حيز النفاذ في العام 2006م ، وصادقت عليها معظم دول العالم، ومنها العراق الذي أصدرت حكومته بهذا الشأن القانون رقم (12) لسنة 2008م .

لقد حمل هذا الكتاب مسعى ـ تخبر عنه مداليل متونه كلها ـ في أن يستفاد منه في منهجية درس أكاديمي قد يتحقق ظهوره في أفق الثقافة العراقية ولو بعد أكثر من حين . ولأجل ذلك فقد كان التمسك بالآليات البحثية دأباً متواتراً ، لعله بدا ناصع الكشف عن نفسه في (آلية التهميش) المتبناة باستفاضة بيّنة وبدقة صارمة ، حتى استحال (الهامش) ـ بقصدية ندعيها ـ متناً آخر. وكان ذاك أمراً استوجبته الأمانة العلمية والمجادلة المعرفية التي (تحايث) المتن وتباصره بما لديها .

يبقى أن نشير أخيراً إلى عنوان الكتاب الرئيس : (جمر أخضر) وهو إدلال عناه مؤلفه ، فهذا التراث الشعبي الذي أمعن في حضوره كينونة ثقافية تعايشها الأجيال التي تعاقبت السكنى فوق هذه المساحة من الأرض (جمر) يتلجلج أواره في القلوب والضمائر، وفوق الشفاه التي ما انفكت تصدح به . (جمر) ولكنه أخضر لأن الزمن لم ينل من بوحه ، فينطفىء ، أو يذبل وارف شجره.